مَسْروقات السَّفينة

أحمد القاسمي

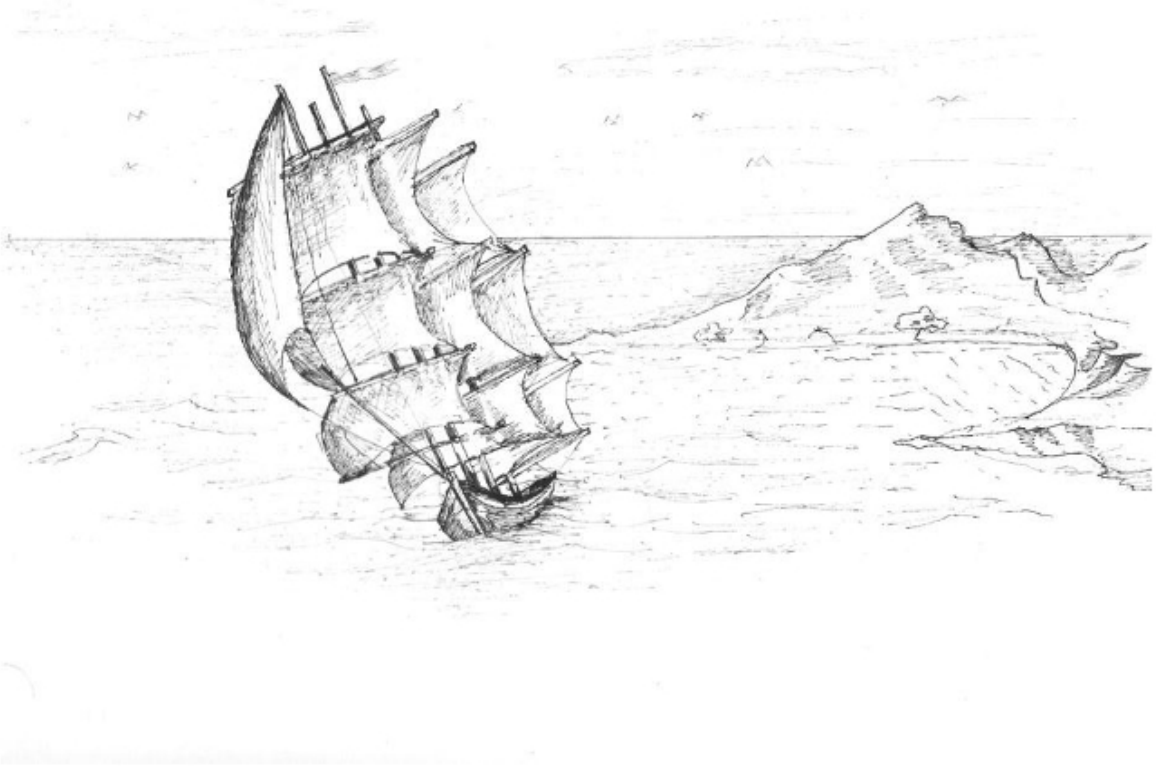

عنوان الكتاب: مسروقات السفينة

المؤلف: أحمد القاسمي.

الهاتف: 0661707826.

البريد الإلكتروني: elkacimiahmed63@gmail.com

تصميم الغلاف ورسوم: المؤلف

رقم الإيداع القانوني: 2019MO5059

ردمك: 978-9920-38-604-3

طبع:PUBIM COLOR. حي المغرب العربي. المسيرة II. الرقم 1691. تمارة. المملكة المغربية. الهاتف: 0661262895.

الطبعة الأولى؛ 1441هـ؛ الموافق 2019م.

جميع الحقوق محفوظة للمؤلف

ما أريد في البداية أن أُخبِر به القارئ هو أنني كنت أعمل بإحدى المؤسسات البحرية، وكان تخصصي الذي رغبت فيه آنذاك هو الغوص في أعماق مياه البحيرات والبحار والمحيطات، وقد شُرِحت لي دروس نظرية في ذلك؛ في أول التحاقي بتلك المؤسسة، وتلقيت تدريبا صارما في السباحة والغطس على يد معلمين أَكِفَّاء سخّروا حياتَهم لهذا العمل، وكُلِّفت فيما بعد بالكثير من مُهمات غطس رسمية، لذلك وبعد ثلاثة عقود من مُزاولة هذه المهنة الخطِرة التي قد يموت أبرع مُزاوليها في الأعماق؛ فإني أقول بأن البحر لم يقف يوما في القديم حاجزا يحول دون تواصل الشعوب والقبائل فيما بينها، وهجرات الأقوام الموسمية أو التي لا عودة منها، ودون التبادل التجاري فيما بين الجماعات البشرية؛ سواء بالمقايضة أو بالنقد المعدني؛ فاستقر الإنسان بعد رَدَح من الزمن من التّرحال والاقْتيات على ثمار الأشجار ولحوم الطرائد؛ فكانت تستمد المدن التي تَجمّع فيها الناس، ازدهارَها وتطورَها من

أُخرى على مرمى حجر منها؛ أو التي تبعد عنها بمئات الأميال؛ فدفعت الحاجة إلى السفر في البحر؛ إلى اختراع وسيلة نقل تطفو على الماء، وتنساب بسهولة؛ تدفعها مجاديف تُحرّكها سواعد العبيد، أو تدفعها الرياح؛ بهبوب هذه الأخيرة في قِلْع تنشره ساريات المراكب؛ فكانت السفينة ناقلةً للبضائع وللأفكارِ أيضا، وحوض البحر الأبيض المتوسط أكثرُ بحارِ العالم ملاحة في عصر سادت فيه شعوب البحر؛ كفنيقيي مدينة صور، وقرطاجيي إفريقية، والإغريق والرومان، فازدهرت مُدُنُهم وأثروا بالتجارة البحرية؛ فتصادموا فيما بينهم واقتتلوا؛ فاندحر من غُلِب على أمره، وقام على أنقاضه من غَلَب، والبحر يُصادِقُهُم أحيانا، ويبتلع سُفُنَهم أحيانا أخرى، وما تشحنه من مواد ومنتوجات فلاحية وصناعية؛ فتبقى تلك السفن الغارقة غابرة في أعماق البحر وفي طي النسيان؛ إلا أن الاهتمام بما جرى في الماضي، وبالبحث عن مخلفات الشعوب البائدة أو التي ننحدر منها؛ رغبة مُتأصّلة في

الإنسان؛ فيقتفي آثار من سلك المسارب والطرق القارية وخطوط الإبحار؛ فيما مضى من الأزمنة.

وهذه إحدى حكايات مُشاركتي في رحلات بحرية والغوص في أعماق المياه، فقد كنت قد قرأت خبراً بظهور مؤسسة مُتخصِّصة في التَّنقيب في أعماق البحر عن بقايا سفن الملاحة التجارية القديمة، والغارقة في البحر الأبيض المتوسط؛ يوجد مقرها في مدينة مرسيليا الفرنسية (*Marseille*)، وشغفي الدائم بتركات الشعوب القديمة، وبما هو مطمور في قيعان البحار جعلني أراسل هذه المؤسسة، وبما يُثبت كفاءتي في الغوص بأي عمق، ودرايتي في انتشال واسترجاع ما غرق بمئات الأمتار؛ أجابني المشرفون عليها بما انشرح به صدري؛ فحررت ورقة بمشروع الانضمام ولمدة شهر إلى فريق من الأركيولوجيين المختصين في موجودات الأعماق، وعرضته على أنظار رئيس القاعدة البحرية؛ فاستُجيب لِطلَبي؛ فشددت الرحال إلى مارسيليا؛ مدينة فرنسا المتوسطية.

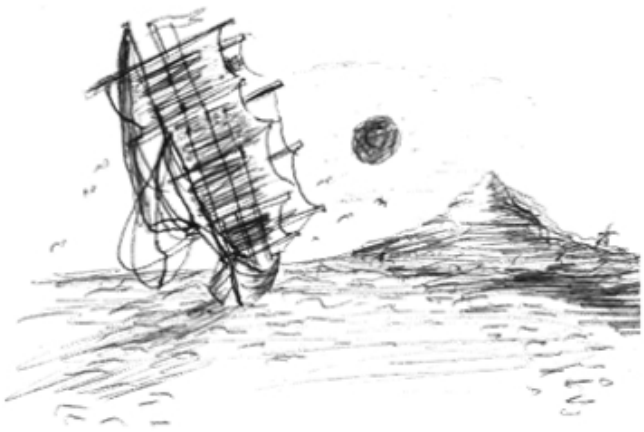

ما أمتع ما صادفت! فالسفر في أرجاء البحر الأبيض المتوسط؛ للبحث عن آثار أحد المراكب القديمة الغارقة؛ سيكون على ظهر سفينة شراعية؛ صُنعت حديثا، وطبقا لتصميم سفن عصر التجارة البحرية؛ في القرنين السابقين للثورة الصناعية وظهور المحركات البخارية.

ها أنذا إذن في مدينة مارسيليا في صيف عام 1982 ميلادي؛ أتمشى في أحد الأصباح[1] ذي الطقس المُنعش؛ على حجارة مرفأ إحدى مدن عالم البحر الأبيض المتوسط المصقولة، وإليها كانت ترسو سفن ومراكب كانت تُبحِر قديما؛ فكانت حركة التجارة نشيطة بها، أو التي أبحرت بعيدا ما بعد قناة السويس بعد خرق هذه الأخيرة لليابسة في

[1] جمع صباح.

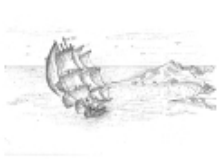

النصف الثاني من القرن التاسع عشر؛ فتراها راسية؛ شامخة الصواري ومُنسدلة الحبال، وجمع غفير من الناس؛ امتلأت به الأرصفة؛ من الأنام الذين يملأون الميناء؛ من هم منفردون إذا كان الهمّ لا يعني الآخرين، واثنان أو ثلاثة؛ إذا كان ما يجمعهم بيع وشراء؛ يجاهد الحمَّالون أحمالهم، والدّافع للعربة كالذي يجرُّها؛ مُجاهدةٌ للأثقال، وبصبر؛ لأن بالعمل يَسترزق من لا مُدّخرات له؛ ظل هذا في مُخيّلتي اَسْتحضِره متى أشاء، وهي لوحة بصباغة زيتية رُسمت بريشة أحد فنّاني ذلك القرن، وشاهدت في ذلك الوقت كذلك مراكبا شراعية قليلة العدد؛ تُذكّر وبحنين إلى الماضي، والكثيرَ من سفن شحن ومراكب ترفيه؛ تنوعت موادّ صُنعها ورُكِّبت بإتقان وباصْطِناعية.

كان الانطلاق في عُرض البحر في صباح اليوم التالي؛ رُحّب بي ونُظر إليَّ بتقدير، وتفرسني رجال السفينة بعيون قارئة وفاحصة؛ فأدركوا أن وجودي في صفّ الباحثين في تاريخ الملاحة البحرية والمنقبين الأركيولوجيين؛ غدا ضروريا، وأن

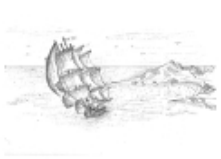

دوري سيكون رئيسا، والسفينة مُغادرة لأرصفة الميناء بمحرك الوقود، ثم مُبْحِرة بالأشرعة؛ بعيدا عن الشطآن الصخرية، وبحارتها يُوتِّرون الحبال ويُرخونها، وواحد منهم يُمسك بعجلة دفة التّوجيه؛ كان العلماء يُحضّرون أجهزتهم الراصدة واللاّقطة، والكيمائيون يُرتّبون قنينات التبخير، وأنابيب التّقطير؛ على طاولات المختبر؛ لفرز العيِّنات وتحْضير مَحاليل تأريخ اللُّقى الأثرية، والموهوبون في أخذ قياسات الموجود الأثري، ورسمه بأبعاده الثلاثة، والمرمّمون له وبعثه في صورته الأولى؛ كما شكّله صانع ذلك الزمن.

جميع هؤلاء درسوا ما اختصوا فيه؛ في معاهد التحصيل العلمي، وفي مراكز البحث، وتدرّبوا وتمرّسوا، وأنجزوا بحوثا علمية، ومُنحت لهم شواهد؛ فلا غنى للفريق المُبحر والموكُولة له مهمة التنقيب عن آثار أعماق البحر؛ عن عنصر منهم...

لم تُضبط البوصلة، ولم يُدِر البحار الممسك بعجلة دفة التوجيه هذه في اتجاه معين، ولم يُرسَم على خريطة الملاحة

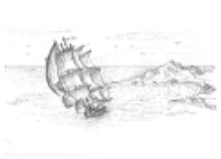

خَطُّ إبحار سفينتنا ذات الصواري الثلاثة؛ إلا لأن في اتجاه جنوب- جنوب- شرق؛ رَميّة الرّامي؛ فقد حدّق الدارسون في صور فوتوغرافية التُقطت من الجو، وفي طقس صفا فيه وجه السماء، وجَزَر البحر، وهدأت مياهُه؛ فغدت صفحته شفافة؛ أظهرت ما هو مُسْتخف في القاع؛ بهيئة اختلفت عن محيطه؛ لا تُوهم الناظر بأنه حوت أو صخرة أو تجويف بحري... هو حمولة سفينة استقرت بهدوء في عمق البحر وظلت على حالها منذ آلاف السنين؛ غير بعيد عن شاطئ الجنوب الغربي لجزيرة سردينيا (*Sardaigne*). مَنِ القوم الذي طغى وملك الأرض والبحر؛ أبحر أفراد منه ليُقايِضوا بما ليس عندهم بالشِّحنة التي غرق بها مركبهم؟ قد يكونون من فنيقيا أو قرطاج أو اليونان أو بلاد الرومان؛ فخُطِّط لاسترجاع ما التقمه البحر في إحدى نوبات زمجرته.

شارَكْنا بعضَنا البعض أَنْهُر[2] وليالي حبنا للمغامرة، ولنا نية واحدة وهي العمل بكل ما في وسعنا لإنقاذ التراث الإنساني الغارق، والمحافظة عليه؛ إلا واحدا منا؛ ما أبطنه هذا غير ما أظهره من حماس ومُثابرة، فلم يَبْدُ عليه ذلك وهو بيننا، فأَقْدم على فعل يُنافي هدفنا النبيل، فكيف نَفّذ هذا الشخص ما أسرّه وبيَّته في نفسه، ومن يكون، ولماذا؟

لم يكن يشغل البال قبل الحادثة التي كان لها تأثير كبير علينا، وقد بذلنا مجهودا كبيرا في عملنا؛ غير ما يغمرني من شعور بالزهو بمشاركتي في بعثة التنقيب، وبارتياح وبالظفر، وبأسعد الأوقات، ولم أكن غير ذلك المتطلع إلى اكتشاف عوالم جديدة؛ هل سيتأتّى لأحد غيري رؤية ما غرق منذ آلاف السنين وبقي بحالته الأولى؛ لم يمسسه بشر؟

[2] جمع نهار.

كانت سفينة البحث الأثري قد غادرت بنا إذن مياه خليج الأسد[3] (*Golf de lion*)؛ فاحتوتها مياه البحر الأبيض المتوسط، وبعد يوم ظهرت على يميننا جزيرة كورسيكا (*L'ile de la Corse*)؛ بشواطئ ذات أجراف صخرية عالية؛ منحوتة في الأسفل؛ تُتوّجها أغطية نباتية خضراء؛ لا يحسب الناظر إلا أنها جزيرة منيعة؛ لا ثغر بها، وقد استَوضَحْت عن ذلك؛ فأجاب العارف بها أن بين تلك الجُدُر الصخرية شواطئ رملية محصورة، ومراس تُتيح للوافد من البحر الولوج إلى بَرّها، وبعد يومين ظهرت على يميننا أيضا جزيرة سردينيا؛ وهذه شطآنها وطيئة ليست كالأُولى، وتُشاهد بها سواحل رملية مُمهدة ومُتشظّية إلى جزر صغيرة مُنتشرة، وصخور مُدملكة؛ يحيط بها الماء من كل جانب؛ تزيد الأمكنة فسَاحة تُريح الزائر.

[3] يمتد خليج الأسد من الحدود ما بين فرنسا وإسبانيا؛ من جبال البيريني إلى مدينة طولون، هو جزء من البحر الأبيض المتوسط.

لم أكن في وقت وصولنا إلى الجزيرة إلا لهفاناً؛ فسألت مساعد قائد السفينة:

– أ سيمتد بنا البحر دون أن نُلقي المرساة؟

ضحك وقال:

– أيّ رحلة لها نهاية، ففي أقصى الجنوب الغربي من جزيرة سردينيا؛ في بحر تيرينيان *Mer Tyrrhénienne*[4]؛ وعلى مسافة خمس كيلومترات منها؛ توجد جزيرة صغيرة اسمها سان بيترو *Santo Pietro*[5]؛ وتقع إلى الشمال من ساحل إفريقيا الشمالية، حيث تبعد عنه بأكثر من مائتي كيلومتر. لا تزيد مساحتها عن واحد وخمسين كيلومترا مربعا. طول شواطئها ثمانية عشر كيلومترا؛ تقع عند التقاء خط طول 8° و18' و21" شرقا، وخط عرض 39° و8' 44" شمالا. جيولوجية صخورها بركانية، وهي جزيرة شبه خالية؛ لا يُعمِّرها سوى

[4] هو جزء من البحر الأبيض المتوسط؛ يقع إلى الغرب ما بين كورسيكا وسردينيا، وإلى الشرق ما بين شبه الجزيرة الإيطالية وصقلية من الجنوب.

[5] توجد في الجنوب الغربي من جزيرة سردينيا.

بعض السكان؛ بعدد قليل من المستقرين؛ يشتغلون بالفلاحة؛ في حقول ضيقة وصغيرة المساحة.

ثم بَسط مساعد القبطان هذا؛ الضابط لمواقع الأمكنة الجغرافية؛ خريطة عالم البحر الأبيض المتوسط، وأمسك بالبركار، وأشار بأحد رأسيه إليها؛ فبدت تلك الجزيرة قطعة من أرض حازها البحر من يابسة سردينيا الممتدة طولا وفي اتجاه الشمال إلى جزيرة كورسيكا، وإلى الجنوب الشرقي من رأس ساندالو *Capo Sandalo*؛ وبعد أن قطعنا مسافة كيلومتر واحد؛ رصدنا بغية إبحارنا، وكانت ستتوقف بنا السفينة في خليج عالي الأجراف.

سألته:

– لا انْحدار إذن يُتيح لأقدامنا أن تطأ أرض الجزيرة؟

قال:

– يُقال أن ما يُؤهّل إلى ذلك مَسَارِب جد مُنْحدِرة، أو أدراج صخرية. يقصد الخليج هواة الغوص والصيد، وترسو على مياهه مراكب الترفيه الشراعية.

قلت باستنتاج:

– فلماذا انتهى هذا المركب التاريخي الغارق إلى هذا الخليج؛ إذا لم تكن الأجراف لا تسمح لبحارته بالدخول إلى الجزيرة، وأن لا حظ لها من الثروات الطبيعية؟

قال مُفكرا فيما نطقتُ به:

– قد نعرف السبب بعد أن نفحص بقايا السفينة ونوع حُمولَتِها.

وأردف بعد لحظة تأمل:

– ربما جاء رجال المركب بالبضاعة التي كان يحملها مركبهم إلى هذه الجزيرة؛ لاستكشافها، ولمعرفة ما إذا كانت مأهولة بالسكان لمقايضتهم، أو البيع مقابل النقود.

كان المركب الغارق تجري به المجاديف أو الشراع المربع...

قلت بمعرفة استقيتها من قراءاتي السابقة في كتب التاريخ البحري:

– كان المركب الغارق تجري به المجاديف أو الشراع المربع؛ في خط الإبحار الذي كان يربط بين مدن العالم القديم المترفة؛ كقرطاج بلاد تونس، وباقي موانئ مغرب الشمس؛ كقرطاجنّة بإسبانيا الحالية، أو مدينتي طنجيس أو الليكسوس بالمغرب الحالي.

قال مُعارِضاً:

– لندع ما في علمنا جانبا؛ ونحقق فيما وجدناه بدون أن تأسرنا معلومات سابقة.

قلت برضى واستحسان:

– ذلك عين التحقيق العلمي.

عاد مساعد القبطان إلى أدوات الإبحار، ومضيت أنا إلى سطح السفينة؛ أسمع صوت شَقِّ مقدمتها الحادة للماء، وأنين السواري الخشبية، والرياح تُوتّر الأشرعة، فتندفع هذه مُرفرفة؛

مُحْدِثة صوتا مُدويّا. تمددت على كرسي مائل المِسْند، وأطلقت العنان لناظِري؛ وتركتهما يُحدّقان في الأفق، وفي السّماء التي يصفو وجهها حينا ويَرْبدّ أحيانا كثيرة، فتظهر في مرمى بصرنا صوار بأشرعة مطوية، ومراكبٌ صغيرة بمحركات وقود، وقوارب مطاطية؛ تزحف نحو شاطئ صخري عال وأجرد؛ لا نبات فيه؛ تلفحه أشعة شمس الظهيرة؛ فطُويت أشرعة السفينة، وجرى هيكلها على الماء تدفعه مراوح محرك الوقود، ثم تُبْطِئ؛ فترسو بسكون في مياه خليج (كابو ساندالو). تعلو رَأْسَ الجزيرة منارةٌ استرشاد وتحذير؛ تتلألأ بِلّوْرات زجاج مصباحها الكبير بأشعة الشمس الحارقة.

قال قائد السفينة:

– الجو ساخن؛ إننا في خط عرض 39°، وما بعد هذه المياه إلى الجنوب القارة الإفريقية.

لم يشدّ انتباهي أيُّ مما يَحْتلّ المكان من مظاهر مدنيّة القرن العشرين؛ فظللت أستعيد مُتخيّلا غرق المركب، وإحساس

بغمّ بمصير ركابه أشعر به؛ فالمركب هوى ربما لخرق وقع في بدنه الخشبي، أو لموج عاصف أطبق عليه؛ فهذا قد وقع ولا ننساه؛ فهو سيان وما يحدث أيضا في الحاضر؛ فمن أجل التجارة والكسب يُراوغ الإِنسان المهالك، وهذا الإنسان يُماثله ذاك الذي عاش في العصر القديم؛ في كل شيء.

رُمز لموقع الغرق على خريطة الأعماق؛ على خط تساوي قياس العمق مائة متر، وأُرسل بجهاز بذات آلية؛ نقل بالتصوير المباشر ما تكّوم مما كان ينقله المركب، وبيئةَ قاع البحر؛ ثم أُعطيت الأوامر لعدد من الأفراد؛ اِثنان منهما سينصبان شبكة من أبعاد مُربّعة، وأنا ثالثهم؛ لأُنظّم غطس الفريق؛ نزولا وصعودا، وذهابا وجيئة في عمق المياه؛ حتى لا يتعرض أحد لحادث مُمِيت. سجل الغواصان المسَّاحان طول وعرض مكان الغرق، وأقصى ارتفاع ركام الحمولة؛ هذا جميعه يُخوّل قياسا تقريبيا بطول السفينة وعرضها؛ كانت بأربعة أمتار عرضا، وبخمسة عشر من الأمتار طولا. صعدنا إلى سطح

تأهّبْتُ وغوّاصان آخران لخوض مرحلة شاقة...

سفينتنا؛ فخَطّ من يُحذق الرسم مُتصوّرا شَكْل السفينة الهاوية في العمق، وفي خارج الإطار الداخلي للّوحة رَسَم سهما يُشير إلى الشّمال الجغرافي؛ فكان وضعها في اتجاه شمال — شمال —غرب؛ ألهذا دليل؟ لعله الاتجاه الذي كانت تَهُبّ فيه الرياح الزاحفة بِشراعها.

تأهّبْتُ وغوّاصان آخران لخوض مرحلة شاقة؛ فقد نزلنا إلى الأمواه[6] وأيدينا تُمْسِك بأُنبوب كشْط؛ ينفث ما يمتصه من رمال وحصى الأعماق، وبقايا مُترسّبة أُخرى تُغطِّي الشِّحْنَة؛ إلى حوض بسفينة التنقيب؛ لتُجفّف، ثم تُفحص ويرى المحدّقون ذوو الخبرة فيها؛ ما إذا كانت شظايا من الحمولة قد تحتوي على نقود معدنية، وقد عُثر على أحدها وبعد معالجته بمحلول رُسمت، ثم قُرئ وجهاها؛ فكانت إحدى مسكوكات قرطاج إفريقية. تلا هذا العمل انتشال مُكوّنات البضاعة. أُنزل صندوق حديدي؛ فكانت تُوضع فيه اللُّقى الأثرية

[6] جمع ماء.

بِعِناية، ويُرفع إلى أعلى بحبال الرافعة الحديدية، وتُرتّب على طاولة وتُرَقّم وتُصنّف؛ أما ما عُثر عليه من أمفورات[7]؛ فكانت هذه تُرفع بعوامات مُعبأة بالهواء المضغوط...

وتنوعت الشِّحنة؛ فهي قناديل زيتية، وأقنعة وتماثيل صغيرة تُجسّد آلهة بنحت آدمي غير مُتناسق؛ فرُسم ما عُثر عليه بأبعاده الثلاثية الأصلية، وأُرِّخت مَوادّ صُنعها بطريقة الكربون الأربعة عشر المشع[8]، ثم تصدى أحد الأساتذة الباحثين في تاريخ الأمم القديمة؛ فصاغ قصة المركب القرطاجي الغارق.

إن قيمة ما وُثّق على الورق، وما الْتُقِط من صور فوتوغرافية، وما سُجِّل بالصوت والصورة؛ يُضاهي قيمة ما عُثر عليه من الموجودات الأثرية؛ فالذي حدث بعد ذلك أنه بعد ليلة احتفال صاخبة بالنجاح، ونوم ثقيل في صباح اليوم التالي؛ كان من آثار الغوص في أعماق المياه المالحة المُضني؛ يُسمع

[7] جرار مستطيلة الشكل كان يوضع فيها زيت الزيتون، أو غيره من السوائل الغذائية.

[8] يوجد الكربون 14 في المواد العضوية، وهو أحد الطرق التي تستخدم في تأريخ العينات القديمة؛ التي قد يبلغ عمرها عشرة آلاف عام أو أكثر.

له غطيط يملأ أرجاء السفينة؛ تفقد القيّم على محفوظات السفينة ما أُودِع من وثائق وآثار؛ فلم يجد لها أثرا...

اِرتفع صوت دقات جرس السفينة النحاسي، واستمر الرنين القوي؛ إنه ليس وقت إحدى وجبات الأكل؛ فلِأي سبب يُنبّه الجرس السارحين في خيالاتهم، أو المتشوقين إلى لقاء الأهل والأحبّاء؟

فكان أن عُقِد اجتماع طارئ واستثنائي؛جلس أفراده بِتَحَفُّز؛ يُمطر الاِستدعاءُ إليه الأسئلةَ عليهم. بادر قائد السفينة قائلا:

– لقد سُرقت أوراق توثيق الموجودات الأثرية؛ وهي رسومات هذه الأخيرة وصورها الفوتوغرافية، وامتدت يد السارق إلى قنديل زيتي وإلى قناع طيني وإلى شاهد جنائزي.

طفحت الوجوه بحمرة الدم، وبسخونة هذا الأخير، وتبادل أفراد الفريق النظرات المتسائلة، وسؤال بغيض ومُخجل يتردد

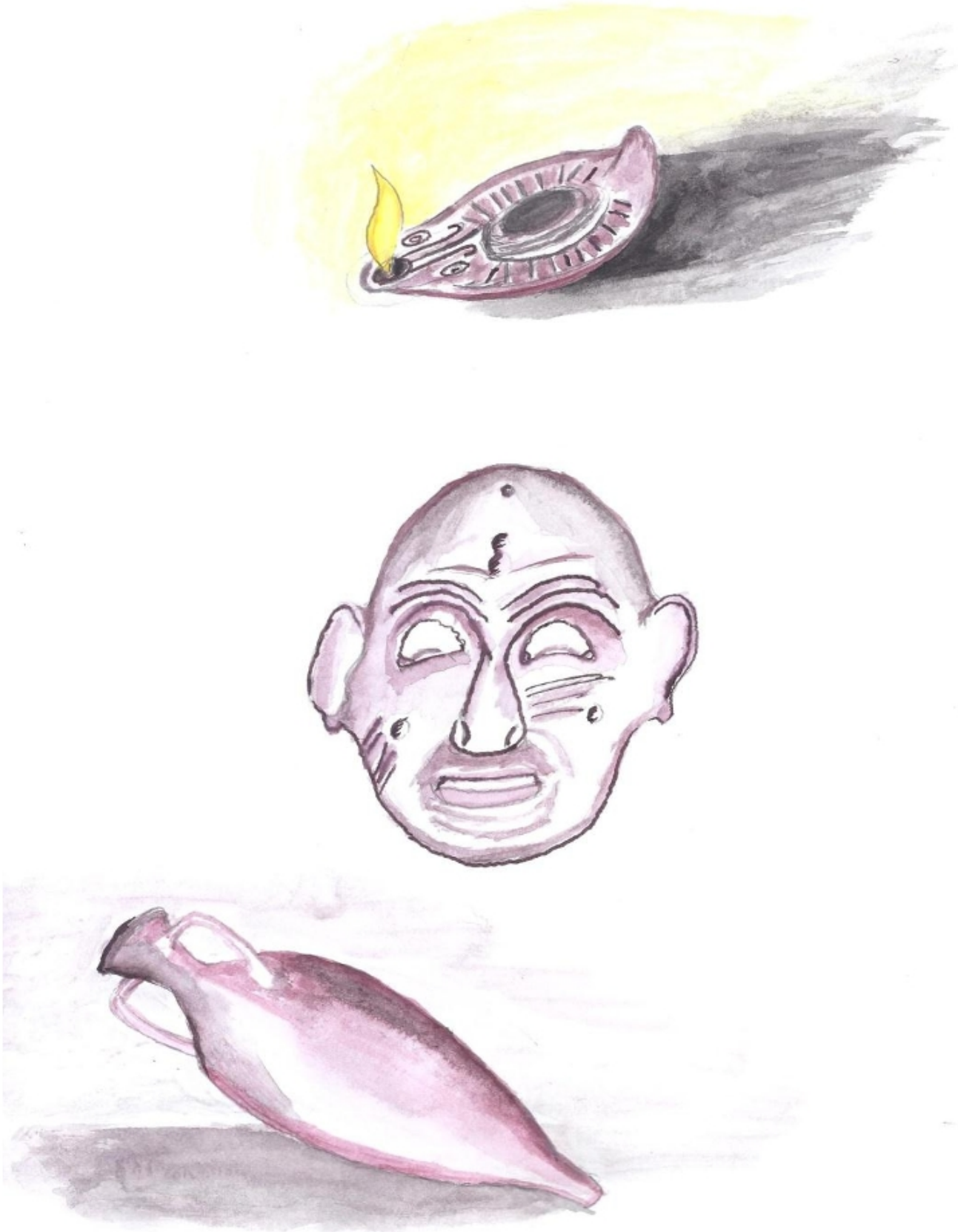

قنديل زيتي وقناع طيني وجرة أمفورا..

في الأذهان؛ أ يكون بينهم من أملت عليه نفسه السرقة؛ لجشع فيها ؟

قام قبطان السفينة وقال في عُجالة:

– سأُخبر مدير المؤسسة بما حدث؛ ليوجه طلبا رسميا إلى الجهة المنوطة بها مهمة التحقيق في السرقات.

عاد بعد أن أملى تقريره الإخباري المقتضب بجهاز الإتصال، وقال:

– أ لدى أحدكم تخمين؟

أَذِن لي القائد؛ فقلت:

– لا أثر مما سُرق في أركان السفينة؛ هذا يدل على أنها في طريقها إلى مكان ما؛ إمّا عبر البحر، أو أن المسروقات في مخبأ في جهة من الخليج، أو على أرض الجزيرة، أو في أحد المراكب الراسية غير بعيدة عنا، أو أن السّارِق الآن يتجه إلى الضفة الأخرى من الجزيرة حيث ميناء كارلوفورت *Carlforte*[9].

[9] ميناء يوجد في الشرق من جزيرة سان بيترو.

قال القائد:

– إذن فتعقّب السارق يتطلب العجلة.

وما كاد أن يُنهي كلامَه حتّى سمعنا هدير حوامة، وصوتا مُترددا يصدر عن مراوحها التي تجْلِد الرياح، ومركبا حربيا سريعا؛ فطُوّق الخليج وبدأت عملية تفتيش، ومراقبة تعقُّبية من الجو... ثم بعد ثلاث ساعات أُخلي المكان من طرف المحققين والمداهِمين، وظل الجميع يترقب بما يُسفر عليه البحث في ميناء كارلوفوت. أُبرق إلينا بأن لا وجود لمن يُشتبه فيه؛ فعرفنا أن النجاح في العُثور على الوثائق والقبض على من سرقها يتطلب تنسيقا بين جهازي أمن فرنسا وإيطاليا واستخباراتِهِما، أو أي دولة ستكون أرضها ملاذا للسارق، وإقامة له بها؛ ليجعل من مسروقاته مادة خام للخلق وللابتكار، أو ليبيعها لمن وجد فيها حاجته؛ فبِأيّ دافع سُرقت بالضبط؟

لم يُخْتَلَف ما فُكر فيه من سبب وحيد بين جميع أفراد فريق البحث؛ وهو رغبة الناشرين المتّقدَة في إصدار كتاب ممتع عن آخر ما اكتُشِف من آثار العالم القديم؛ فليس هناك ما يحول دون تحقيق ذلك؛ فسرد القصة سيبرع فيه أحد الصحفيين المتمرّسين؛ ولا يتطلب منه وقتا طويلا، وسيتهافت عليه القراء وسيُحقق مبيعات كثيرة، فشُهْرة ورِبْح مال.

وَجّه رئيس فريق البحث كلاما إلى بَحَّار السفينة؛ فقال:

– لا بأس؛ سنُعيد الكرّة إن كان من أبدع في المرة السابقة مُستعدّا؟

أجاب كل من قام بعمله برغبة وأتقن:

– أجل؛ وقد اكتسبنا دُربة ومهارة.

فشمّروا عن سواعِدِهم، وبسطوا الورق؛ فراكموا على بياضه أشكالا هندسية بالحبر الأسود؛ فهي دوائر ومربعات

وما كاد أن يُنهي كلامَه حتّى سمعنا هدير حوامة...

ومستطيلات، وأنصاف دوائر ومنحنيات وأقواس، وحُرّرت التّقارير بوصف الموجود الأثري؛ فكانت حصيلة هذا أرفع من الأول؛ فاطمأنّت القلوب وسعدت النفوس؛ فلم يعد يُفكّر أحد فيما سرقه اللص؛ فقد أغناهم ما بأيديهم الآن؛ فتحرّروا من المهمّات وتفرّقوا؛ فمنهم من توغلت به مسارب مسحوقة التراب، وطرق معبدة قديمة؛ في أرض الجزيرة؛ في سياحة صوفية، وفي خُلوة مع طبيعة جرداء؛ يتفرج على السحالي والخنافس والطيور المهاجرة، ومنهم من وجد في الحصى المدملك وفي القواقع وأصداف المحار إبداع الطبيعة الفذ، ومنهم من تعقب الأسماك في مياه الخليج بالبندقية التحتمائية، أما أنا فلم أكن في مثل وقت الراحة ذاك الذي يقضيه الآخرون، ولم أتأخر عما اقترحه علي أحد علماء الأحياء البحرية؛ صاحبنا في رحلتنا هذه؛ وهو أن أرافقه إلى أعماق البحر ليُدوّن ما ندر من كائنات بحرية؛ من نباتات وأسماك تعيش في بيئة البحر المحيطة بالجزيرة؛ فكان ما شاركت

به إضافة إلى ما راكمتُه من تجارب في الغوص، ولا أستحيي فأعرضها على أية بطاقة سيرة أُدلي بها في المستقبل.

في فجر اليوم الرابع من إقامتنا رفعنا المرساة، وأبحرنا شمالا في اتجاه ميناء مرسيليا؛ تدفعنا رياح الميسترال[10]. لم تبْد على قائد السفينة أي آثار همّ بما فُقد من وثائق، وحاولت أن أجد لذلك تفسيرا، وفي إحدى الأُمسيات وأنا أختلي بما أخُطّه على مُذكّراتي؛ قادني تفكيري إلى استنتاج هو أن عملية تعقُّب الشخص الذي تلصّص وسرق قد باءت بالفشل، وخُطّط لتظاهر مؤقت للتكتم على أخرى يقوم بها مُحقّقون في الخفاء.

ما إن وطِئت أقدام قائد السفينة، ورئيس فريق البحث الأركيولوجي حجارةَ الرصيف؛ حتى تحلق حولهما مراسلو القنوات الإخبارية والصُّحف؛ مُصوّبين كاميراتهم ومصوراتهم

[10] رياح تسود في الشمال الغربي لجزيرة سان بيترو، وتطبع طقس المنطقة.

وميكروفوناتهم، ويُمطر آخرون عليهما سيلا من الأسئلة؛ فيُجيبان بما حدث ولا أثر لبطل الواقعة.

لم تنته أحداث الحكاية، وبالرغم من هذا أُسْدِل السِّتار، ولا يدري أحد ما يجري وراء الكواليس.

بعد يوم من عودتنا إلى مقر مؤسسة أركيولوجية أعماق البحر؛ أُسْتُدعِيت إلى مكتب المدير؛ لم أجد هذا الأخير وحده؛ فقد جلس إزاءه رئيس فريق البحث الميداني وقائد السّفينة. شد كل واحد منهم على يدي بحرارة؛ مُنوِّهين بما قمت به، وسلموني شهادة تقدير مُذهَّبة الحواشي؛ تحمل إمضاءاتهم الثلاثة، ومبلغا من المال. لم أنتظر؛ فقد أبليت بلاء حسنا وكُوفِئت، فكنت في مساء ذلك اليوم من بين ركاب طائرة فرنسية؛ حلقت في إحدى رحلاتها العددية إلى السنيغال؛ بُرمج توقف لها في مطار الدارالبيضاء.

لم أنس لحظة تلقّي خبر السرقة؛ فقد أُحرِج الجميع، ولم تدع ذاكرتي حادثتها تَمْحى؛ وقد مرت ثلاث سنوات من وقوعها؛ فكنت أُطالع الصُّحف والمجلات خلال هذه المدة، وأترك

في فجر اليوم الرابع من إقامتنا رفعنا المرساة....

العِنان لأُذني لتلتقط خبر ما يمُتّ بصلة بها؛ فما أزال أسعى وأتصفّح المنشورات المعروضة في الأكشاك؛ حتى تلقيت وباسمي مجلة تصدر عن إحدى المؤسسات الإعلامية الفرنسية؛ بعث بها عالم الأحياء البحرية الذي غُصْت معه في بحثه عن الكائنات البحرية؛ فأشاهد على ورق غلافها المصقول صورة تُلفت النظر بألوان فوتوغرافيتها، وتُغري بما تعرِضُه، وليس شيئا آخر غير رسم لسفينة قرطاجية، وقناع طيني وقناديل زيتية ونُصُب جنائزية، ورسومات هندسية لهذه التُّحف الأثرية، وصُورها الفوتوغرافية، وأقرأ بالبنط العريض عنوانا مُثيرا يخبر بالحاجة إلى سرقة ما وُثّق عن تلك الموجودات، وبما أفضى إليه التحقيق؛ إلى الكشف عن مزورين لآثار حضارات البحر الأبيض المتوسط القديمة.

خطر في بالي كلام: "اندفاع القراء إلى الاطلاع على ما يُثيرهم في المقال؛ ليس بمثل اهتمامي به؛ لأني ساهمت بجهد اعتُرف به في تنفيذ خُطّة التنقيب وإنجاحها"؛ فانزويت بالمجلة وقرأت ما لم أسمع به من قبل؛ فاستغربته. بحث فريق تحرير

المجلة وحقق ما لا مبالغة فيه ولا نسجا من خيال؛ فأتحدث بما لخصته من ذلك كله:

"درس أحد ممن أثارتهم قصص اكتشافات الغربيين لآثار حضارات بلاد الرافدين ووادي النيل في العقود السابقة؛ عِلْم الآثار بجامعات أوروبا، وحاز على شواهد نهايات مراحل التعليم العالي، وحاضر في أقسام الاختصاص الأركيولوجي، وترأس بعثات التنقيب عن آثار حضارات الشرق القديم؛ في مصر وفي سوريا وفي العراق وفي شمال إفريقيا، وأصدر كُتُبا؛ ونهل من كتب الفطاحل، ومن أُمّهاتها، وأنجز مشاريع أبحاث؛ فتدرج في المستويات العلمية؛ فأصبح عالم آثار؛ بل من شيوخه؛ بيده إجازة من كَدَّ ليختص في علم الإنسانيات، وزار أشهر المتاحف التي تَعْرِض وتحفظ ما خلفته أُمم العصور القديمة؛ يتأمّلها بعين الخبير ويُقارن فيما بينها؛ ليعرف ما تكتنهُه تلك الحضارات، وأعظم من هذا؛ فهو قد طرح سؤالا ليخرج بنظرية، وهو: هل عمرت الأرض حضارات أخرى كانت قد وصلت إلى مستوى ما تراكم في عصرنا من

إنجازات علمية وتكنولوجية؛ فبادت، وما نراه حاليا ماثلا أمامنا من صروح حضارة مصر الفرعونية وسومر وبابل والصين؛ بُنيت بالحجر المنجور والمصقول إلا بعثا آخر؟ فمما لاحظ من طول التحديق والتأمل ما لم يخطر على بال أحد؛ فمن بين مُقتنيات متاحف العالم من آثار؛ ما هو إلا مصنوعات مُزوّرة؛ ونسخا من الأصل؛ شُكّل طينها وصُبّ معدنها؛ فأرعد عالم الآثار هذا، وأزبد وأقام الدنيا وأقعدها؛ فكتب ونشر وساجل مُعارضيه؛ ففُحص ما اقتُبس من تلك الآثار والتحف؛ بالأجهزة السابرة للمادة؛ فتوصلت لجان التحقيق إلى ما صدم العالم.

من هو ذلك الشخص الذي اعتمد الأصول؛ فصنع ما لا تستطيع عين الإنسان أن تكتشفه؟

*****

لم يكن يواظب أحد فتية مدينة قرطبة الإسبانية على حضور الدروس التي يُلقيها معلموه في المدرسة؛ فكان تلميذا خائبا وخاسرا، كان يقضي أوقاته في مشاركة أفراد جماعة من

المتسكّعين؛ تتخذ من البيوت المهاجرة ملاذا؛ لتناول الكحول وما يُسفّ وما يُحقن من المخدر، وقد شَبَّ؛ فأصبح في حاجة إلى المال؛ فقصد مرة مطار المدينة، وانتظر بالباب الرئيس سياحا مُوسِرين؛ قادمين من بلدان أوروبا الغربية أو من أمريكا الشمالية؛ لمشاهدة قصور وقلاع وحدائق ونافورات وبساتين حضارة الأندلس الإسلامية العَطِرة. قَدَّم نفسه إلى البعض منهم على أنه مُرشد سياحي مُتطوع؛ فاحترف ذلك ونجح، ولم يقنع بما يتقاضاه؛ فسلك في أحد الأيام؛ في غير موسم السياحة زُقاقا أفضى به إلى نحات مغمور؛ أملى عليه اقتراحا بنحت نسخة مصغرة من رؤوس أُسود؛ يُحاكي بها الإثنى عشر أسدا المحيطة بفَسْقِية بهو قصر الحمراء؛ فقلد ذلك النحات بإزميله ما بهر عيون السياح؛ فكانت تلك المنحوتات من مقتنياتهم للذكرى، فجنيا؛ هو الذي دبَّر والنحّات الذي نفَّذ؛ مبلغا من المال حفَّزهما، فانكبّا على نسخ تحف أثرية؛ بصَبّ خليط من الطين وغيره، وصُهارة من معدن البرونز أو النحاس أو الفضة في قوالب،

وكيّها بالنار لتبدو عريقة؛ ببراعة لا نظير لها؛ جعلتها من ضمن هدايا ومُقتنيات بيوت الأثرياء؛ هؤلاء وفي أعلى درجات الانتشاء بالكسب الوفير؛ عرضوها للبيع فسال لها لعاب تُجّار التحف القديمة؛ فحمى المزاد العلني، وتزايد في الثمن من يُمنِّي نفسه بالثراء؛ فكانت مرة أخرى تلك التحف المزورة من مُقتنيات متاحف العالم. هل كان مديرو المتاحف على علم بما هو مُزوّر، وعُرض لاستقطاب الأغرار من الزوّار؛ لضمان مداخيل مالية؟

سؤال طرحه أحد الصّحفيين على عالم الآثار الغيُور؛ بروفيسور علم الآثار ذاك؛ إلا أن هذا آثر السُّكوت.

وهل تغيب عن صانع القديم الخادع لأبصار العاشقين ذلك القرطبي؛ ما عثر عليه المنقبون والممولون لتجارة الثراء، ومواقع أمكنة آثار الأمم السالفة، خصوصا في وقت تطورت فيه وسائل تكنولوجية التقاط الصور من الفضاء، ومسح الأراضي، ورصد ما تخلف عن تشذيب الأحراش من بنايات عتيقة، وعن الحرث في لبنات أطلال مدينة قديمة، وتهافتِ

وفي نهار اليوم التالي تكرر اللقاء...

مُنتجي الأشرطة الوثائقية وصانعي الأكاذيب، ونماذج تُسْتَوفى بها إثارة الملايين من المشاهدين؟ فلم يتغاض القرطبي؛ صاحب فكرة نسخ القديم ذي القيمة الأثرية، أو يستثقل مغامرة جديدة؛ عندما وصله خبر بتنظيم رحلة من طرف مؤسسة مختصة في أركيوليوجية الأعماق؛ لرفع حمولة سفينة قرطاجية غرقت في العصر القديم؛ بخليج جزيرة سان بيترو؛ فدفع ثمن تذكرة سفر بالطائرة إلى مارسيليا، وما نقد به أصحاب الفنادق في غرفات لمبيته؛ نَزْر مما يكسب، وتوجه إلى إحدى المقاهي وجلس يرتشف كأس قهوة مُحضّرة من حبوب بُنّ برازيلية مُحمّصة، ويتابع بمنظار مكبر ما يجري في الرصيف الذي ترسو عليه سفينة الأبحاث الشراعية، وآلات وأجهزة التنقيب تُشحن.

وكان قد غادر أحد البحارة سفينة الغطس تلك التي تتهيأ للسفر، وأقبل وترك جذعه يهوي على أحد كراسي المقهى، وانتبه لمقدم النادل؛ فطلب ما يُطفئ عطشه ويستمرئه؛ وهو لا يدري أن عينا المزور الداهية الإسباني تتابعه، وقد خطا

هذا وحيّاه؛ فرد البحار بما يماثل؛ فجلس ذاك الماكر وهو الذي يتغلغل بمؤثرات إغرائية اكتسبها، والتقيا في ليل ذلك اليوم في مقهى آخر، وفي نهار اليوم التالي تكرر اللقاء؛ فإملاء بتسريب مما سيُعثر عليه من آثار؛ فمساومة؛ فاتفاق على أن يُمهّد البحار السبيل للصانع الخداع في داخل السفينة؛ فيصور فقط تصاميم ما سيُجلب من الأعماق من مواد أثرية؛ إلا أنّ هذا لم يف؛ فحزم كل ما وقعت عليه يدُه وهو في كابينة السفينة المخصصة للمحفوظات الأثرية التي دله عليها البحار.

كان ذلك البحار في عَوَز؛ اِقترض ولم يف؛ فكانت تلك فرصة سنحت له ليغنم، ولم يكن هو سوى ذلك الصاقل لنُحاس مِشكوات[11] مصابيح السفينة بالمسحوق، والمصلح لأعطاب تُصِيب الألواح الخشبية وتلميعها بالسائل الخاص، لما استُجوب قال بأَنّه لم يع بخطورة ما طلب منه الإسباني،

[11] جمع مشكاة.

واعتبره فضولا عابرا، وما اتفق عليه هو التصوير فقط؛ إلا أن احترافية القرطبي الجشع جعلته في ورطة. اقتُفيت آثار المسروقات؛ فتم استرجاعها، وخطوات المدلِّس الصانع للأثار الخادعة؛ فتم تقديمه للمحاكمة، أما البحار فقد تم توقيفه عن العمل مدة شهر؛ تأديبا له؛ لإفشائه لسر ما يحتفظ به عادة، ومما له قيمة علمية وأثرية في سفينة الأبحاث، ثم أُعِيد إلى عمله.

تمّت.